فترة الحكم العثماني بالجزائر في كتابات الأستاذ أبو القاسم سعد الله

أ. أحمد بن يغزر، جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة. الجزائر.

لم يخصص الأستاذ أبو القاسم سعد الله رحمه الله مؤلفا خاصا بفترة الحكم العثماني في الجزائر، ولكن هذه الفترة بأحداثها وظواهرها كانت حاضرة في العديد من كتاباته وتدخلاته التاريخية، ولم يكن رأيه فيها جازما أو نهائيا ولاحتى جامدا، بل كانت تتحكم فيه مجموعة من المحددات والضوابط التي ارتضاها في منهجيته في التناول التاريخي لمختلف الفترات والقضايا.

إذا ما استثنينا موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي في جزئها الثاني الممتد زمنيا كما في عنوان الكتاب بين سنتي:(1500-1830) أي طيلة الفترة التي كانت الجزائر فيها تحت الحكم العثماني،فإن ما كتبه سعد الله رحمه الله عن العثمانيين في الجزائر موزع عبر عدة دراسات ومقالات وأبحاث مبثوثة عبر عدد من كتبه مع ملاحظة مهمة أن مواقفه من هذه الفترة سجلت تطورا بين كتبه الأولى التي صدرت خلال السبعينات من القرن الماضي علي غرار كتاب: "محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث"(1) وبين بعض كتاباته الأخرى التي أصدرها لاحقا .

ومن أمثلة ذلك قوله مثلا في الكتاب المشار له أعلاه:"...بينما نعرف من كل الدراسات حول الموضوع أن الوجاق في الجزائر لم يحاول أبدا أن يعيش في العصر الحديث الذي كانت تحياه أوربا ،بل العكس لقد أغلق جميع النوافذ وقبع في حدوده القديمة ،مما جعل البلاد تعاني من حكم الإقطاع وظلم الحكام والجهل والتخلف العلمي، فكانت النتيجة أن احتل جيش فرنسا الجزائر، ولم يكن الوجق يدافع حتى عن حريمه ،وإذا توسعنا في الاستعمال وتجاوزنا في الحكم نقول بأن ما وقع سنة1830 في الجزائر ليس احتلال فرنسا للجزائر هكذا بل هو احتلال العصر الحديث للعصر الوسيط أو احتلال التقدم للتخلف."(2)

ويبدوا من منطوق ومن مضمون هذه الفقرة قسوة الحكم وشدته فهو يحمل العثمانيين كل ما حل بالجزائر من الجهل والتخلف، وبالنتيجة احتلال فرنسا للجزائر، ويصف هذا الحدث بأنه "احتلال التقدم للتخلف " .

لكنه في موقع آخر يقرر: " ورغم أهمية المرحلة العثمانية في تاريخ الجزائر فإنها بقيت حقلا بكرا أمام الدارسين، ونقول (أهمية) لأن الجزائر الحالية في الواقع قد تشكلت تقريبا خلال هذه الفترة: سياسيا واجتماعيا وشعوريا. ففكرة الدولة ظهرت خلال هذه الفترة بكل مقوماتها :من حكم مركزي وحكام أقاليم، وإدارة محلية، واقتصاد متكامل، ودبلوماسية نشطة تشمل توقيع المعاهدات، وفتح القنصليات، وتبادل الأسرى، ووجود أسطول يرهب عدو الله وعدو البلاد، وعملة ثابتة ومتنوعة، وراية خاصة ،ومراسيم سيادية عديدة" .(3)

وعلى الرغم مما يبدوا من أول وهلة أنه تناقض في الحكم فإنه في الجوهر ليس كذلك ،بل إن الأستاذ سعد الله كان حريصا أن يضع موقفه من هذه الفترة التاريخية بشكل مناسب لقناعاته الفكرية، ومحدداته المنهجية وليس بالضرورة ان يصطف إيديولوجيا إما(مع) بالجملة أو(ضد) بالجملة. ويمكن أن نفسره أيضا بأنه تطور لموقف الأستاذ بين مواقفه الأولى وبين ما تلاها .

وأول محدد يشير إليه في هذا الاتجاه أنه يضع موقفه ضمن السياق التاريخي لتلك المرحلة بمعطياتها وظروفها وملابساتها، ويرى أنه من الخطأ المنهجي محاكمة هذه المرحلة بمعايير خارج السياق السائد في زمنها هو يقول في

ذلك : " والواقع أننا نظلم هذا العهد (يقصد العثماني) إذا طبقنا عليه معيار اليوم فوصفناه بعصر التنوير أو عصر الظلام ،بينما هو لم يكن لا هذا ولا ذاك ،وإنما كان بكل تواضع يعبر عن حالة كانت تمر بها كل المجتمعات الإسلامية :من تطوان إلى جاكرتا ،حالة وصفتها الدراسات الحديثة بالتخلف المزمن الذي بلغ النخاع ومس العقل والقلب".(4)

وفي نفس الاتجاه يقول في موقع آخر :"هل الدولة العثمانية كانت غازي أو منقذة لنا نحن الجزائريين ومن في حكمنا من سكان المغرب العربي ؟إن إسقاط فكرة ما في عصر معين على عصر آخر قبلها أو بعدها فيه أحيانا مغامرة كبيرة قلما ينجو مرتكبها من الوقوع في الزلل."(5)

من جهة أخري يدافع سعد الله عن محدد مهم للتعامل مع هذه الفترة التاريخية في الجزائر باعتبارأن التجاوزات والأخطاء التي وقعت خلالها لا تمثل عملا ممنهجا من الدولة العثمانية نفسها وإنما هي تصرفات سلطوية قد تكون في بعض الأحيان تعبر عن نوازع فردية لبعض الحكام، ولا تعكس سياسة السلطة المركزية في الباب العالي وفي هذا الشأن يقول :"...فقضية الأخطاء والمظالم حينئذ، يجب تناولها على أساس أنها (ظاهرة سلطة)وليست (ظاهرة قومية)".(6)

ونتيجة لذلك يحرص سعد الله في كثير من المواقع على إبراز ما يراه من أدوار إيجابية ميزت فترة الحكم العثماني عوض التركيز على سلبياتها فقط كما يفعل بعض المعادين لهذا الوجود من المؤرخين الفرنسيين، فهو مثلا يعيد الفضل للعثمانيين في تشكل الروح الوطنية ،وإبراز دورها الإقليمي العسكري والسياسي في البحر المتوسط لمدة طويلة من الزمن قبل وقوعها تحت نير الاحتلال،يقول:"...فإذا كنا من أنصار فكرة الجزائر القطرية فالفضل في إنشائها يرجع بالدرجة الأولي إلى هؤلاء الرجال الذين جعلوا من المملكة الزيانية وجزء من المملكة الحفصية وإمارات سويد والثعالبة والذواوده وغيرها ،جعلوا منها دولة الجزائر التي استمرت عدة قرون والتي أصبحت تدعى جلادة المسيحية ،والتي لم يعتد عليها إلا الاستعمار الفرنسي سنة 1830".(7)

وهذه الإشادة ببعض المزايا التي ظهرت في حقبة الحكم العثماني لا تدفع بسعد الله إلي تبرئتهم من أخطائهم ومثالبهم ،لكنه يشير أن كل ذلك لا يجعلهم في مقام الاحتلال الفرنسي الذي جاء بعدهم في ما ارتكبه من جرائم ولذلك فهو يقول : "...نعم هناك بعض التصرفات التي قد يتفق فيها العثمانيون مع الفرنسيين ، ومنها إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية ثم في العهد الفرنسي بالدولة الفرنسية ،وتولي حكم البلاد ،في كلتا الحالتين من قبل حكام غرباء عنها باستثناء قلة من الباشوات والبايات في العهد العثماني ، والتعالي على أهل البلاد ، ولكن العثمانيين لم ينتزعوا الأراضي من أصحابها ولم يقوموا بحركة توطين على حساب أهل البلاد ،ولم يفرضوا على السكان مذهبا ولا لغة ولا ثقافة معينة بل أسهموا مع أهل البلاد في بناء المدارس والمساجد والزوايا وتوفير الأوقاف للشؤون العلمية والدينية والاجتماعية ، وقد تركوا اللغة العربية هي السائدة في التعليم والتأليف والثقافة العامة."(8)

والحال أن هذه المقارنة تحتل موقعا مركزيا ومحوريا في بناء سعد الله لموقفه من العهد العثماني فهو كثيرا ما يعتبر إلحاق كل السلبيات به امتدادا للمدرسة التاريخية الفرنسية والمتأثرين بها من الجزائريين، لتبرير أكثر من قرن من الاحتلال بمظالمه وانتهاكاته،أو محاولة إظهار الاحتلال الفرنسي وكأنه امتداد للوجود العثماني ولعل ذلك ما دفعه

لتخصيص حيز كبير في مناقشته لما كتبه المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان في كتابه "تاريخ الجزائر المعاصر" للرد على دعاويه في ما يتعلق بالعثمانيين وخاصة اعتبار الحكم العثماني استعمارا وذلك :"...أن النظرية التي بني عليها المؤرخون الاستعماريون محاربة الوطنية الجزائرية كانت تقوم على الادعاء بأن الجزائريين مخلوقون للاستعمار، وجوليان قد قبل هذه النظرية خصوصا في كتابه – تاريخ افريقيا الشمالية – وقد كان هناك سببان واضحان لهذه النظرية الأول هوأنها كانت تحاول تبرير الاستعمار الفرنسي في الجزائر. ألم يكن سوى حلقة من سلسلة الاستعمارات التي سبقته ومن بينها الاحتلال العربي والاحتلال التركي؟ والثاني هو أنها كانت تحاول فصل الجزائريين عن حضارتهم العربية الإسلامية ."(9)

ولذلك فإن سعدالله عندما يتناول مرحلة الحكم العثماني خصوصا ما يتعلق منها بأوجهه السلبية سرعان ما ينبه إلي التفريق ما بين نقد هذه السلبيات وهو أمر طبيعي وعادي لا يخلوا منه نظام حكم عبر كل الأوقات وكل الأمكنة، ولكن من الخطأ تحويل ذلك النقد إلى حكم عام، أو محاولة سحب الحكم على الاستعمار الفرنسي باعتباره وجودا غاشما على الوجود العثماني بالجزائر .

ومن المحددات التي حكمت أيضا موقف سعد الله من هذه الفترة هو تحميل جزء من المسؤولية للجزائريين أنفسهم ،فوجود العثمانيين في بلادهم كانت بطلب منهم لما استشعروا الخطر الأوروبي، فهم من طلبوا من خير الدين وعروج المجيئ ، وهم من أوفد للسلطان سليم من يطلب منه اعتبار الجزائر إيالة عثمانية ، كما أن العثمانيين لم يحاولوا التدخل بشكل مباشر في الشؤون الخاصة للجزائريين ،أو توجيه واقعهم في مختلف مكوناته نحو مصالح ضيقة خاصة بهم .

يقول سعد الله في هذا الشأن:"...ومن الثابت تاريخيا أن الجزائريين أنفسهم هم الذين طلبوا التحالف مع الخلافة الإسلامية في أوائل القرن السادس عشر. وكان ذلك الطلب يستهدف التعاون مع الخلافة لطرد الغزاة الإسبان والبرتغال الذين احتلوا شطرا من سواحل الجزائر وهددوا جميع افريقية الشمالية بالاحتلال. وهكذا فإن نزول الأسطول العثماني مياه الجزائر بناءا على رغبة الجزائريين أنفسهم، لم يكن للاستعمار، ولكن لإنجاد جزء من العالم الإسلامي كان مهددا بالخطر. "(10)

بطبيعة الحال فإن سعد الله وهو يدافع عن العثمانيين أو بصورة أدق وهو يحاول أن ينصفهم، ويناقش الأحكام القاسية التي ألحقها البعض بهم وبسياستهم في الجزائر ، لا يجرد فترة وجودهم في الجزائر من السلبيات والمآخذ بل هو يستخدم أحيانا عبارات عنيفة وهو يتحدث عن ذلك.

لعلنا نحاول أن نبرز أهم المآخذ التي يرى الأستاذ أبو القاسم سعد الله ارتباطها بالوجود العثماني في الجزائر من خلال النقاط التالية:

-عزلة الحكام العثمانيين واستعلائهم عن الجزائريين :فهم لم يحاولوا في أغلبهم الاقتراب من السكان ولا إشعارهم بالرعاية والاهتمام فقد كتب سعد الله قائلا :"كان الباشوات والبايات يتوارون عن الناس فلا يحدثونهم ولا يخرجون إليهم ،فقد يبقى الحاكم ما يبقى فلا يعرف الناس وجهه ولا شكله ولا يسمعون له صوتا ولا يخرج إلا غازيا أو إلى

قبره ،بعد أن يكون خصومه قد تخلصوا منه سريا بالخنق ونحوه ،حتى التولية والعزل لا يعرف المواطنون عنها شيئا ولا شأن لهم بهما. "(11)

وفي موقع آخر يكتب سعد الله رحمه الله واصفا العلاقة بين السلطة والسكان بعبارات قاسية :" أما صلة الوصل بين الحاكم والشعب فاثنان: الجندي الجاهل بسلاحه المرعب وقسوته المتناهية وشرهه الذي لا يعرف الحدود، والمرابط الذي كان يقوم غالبا بدور المسكن للخواطر والجالب للرعية نحو الحاكم بأساليبه الصوفية والدينية المتعارف عليها. وبالاضافة إلى ذلك كان هناك بعض شيوخ القرى وقواد النواحي، ولكن حظ هؤلاء كان في أغلب الأحيان هو الجمع بين قسوة الجندي وحكمة المرابط."(12)

-إهمالهم للثقافة والعلم ،وانشغالهم عن ذلك بالغزو والغنائم ،يقول سعد الله عن هذه القضية :"لم تؤسس السلطة العثمانية الجديدة نظاما للتعليم ترعاه وتنميه ،ولم تهتم بالمراكز الثقافية كالمدارس العالية والمساجد المفتوحة في وجه الطلبة المتعطشين للعلم ،في وقت كانت فيه أزهار الأدب تذبل في الأندلس وفاس وتلمسان وقسنطينة .لقد كان شغل السلطة الجزائرية الجديدة الشاغل هو الدفاع عن المكتسبات وفرض الهيمنة بالداخل وشن الغارات في أعالي البحار لحصد الغنائم وقهر الأعداء .وهكذا استمر وجود السلطة العثمانية قرنا ونصف قرنا تقريبا وجودا سياسيا واقتصاديا ليس فيه أثر أو تأثير للثقافة والأدب والفن ولاحتى اقتراب من فئة الأدباء والشعراء ،وكان العلماء الذين تتعامل معهم لا يخرجون عن الفقهاء والقضاة وبعض مرابطي الطرق الصوفية "(13)

ولكن سعد الله لا يعد هذا الامر سلبيا كله ،بل هو يرى أن العثمانيين لم يحاولوا أن يغيروا أمرا وجدوه قائما فالتعليم والثقافة كانت من شأن السكان تنظيما وتمويلا ولا علاقة للسلطات به حتى قبل العثمانيين أنفسهم .وليس لهم من مسؤولية خاصة بهم في هذا الشأن إلا في نقطة واحدة هو تشجيعهم لانتشار بعض أشكال الخرافة والبدع، ولعل لذلك علاقة بحرص الحكام الأتراك على تقريب شيوخ الطرق الصوفية يقول :"...أما النقطة التي نود أن نتعرض لها لأهميتها فيما نحن بصدده، وهي انتشار البدع وشيوع حلقات الذكر والأوراد وتعدد الطرق الصوفية وتطرفها في عقائدها، وقد كان بعضها يعمل بتشجيع واضح من الحكام العثمانيين "(14).

لعل القارئ لموسوعة تاريخ الجزائر الثقافي(1500-1830)يلاحظ أن سعد الله وهو يتتبع النتاج الثقافي والفكري للجزائريين خلال هذه الفترة الزمنية بمختلف أشكاله وصوره ،أنه لم يحاول أن يربط بينه وبين الوجود العثماني إلا في حدود ضيقة وكأن هذا الوجود لم تكن له أيه علاقة بهذا الحراك ولاتأثيرله عليه البتة، وهو ما يفسر ضعف التأثير الثقافي للعثمانيين في الجزائر إضافة لعوامل أخرى طبعا .

- تهميش الأتراك للعنصر الجزائري عن شؤون الحكم ودوائر القرار إما لعدم الثقة فيه ،أو لنزعة إقصائية استعلائية متأصلة في العنصر التركي: " تكاد القيادات السياسية بين الجزائريين أن تكون منعدمة في العهد العثماني ،وإذا كان هناك نوع من القيادة للرأي العام فإنها كانت منحصرة في المجال الديني : العلماء والمرابطون ، وفي المجال الاقتصادي : الأغنياء أو كبار التجار وملاك الأرض .وكان هذا الوضع هو الموجود ساعة احتلال الجزائر"(15)

من خلال هذا العرض نلاحظ أن سعد الله في موقفه من فترة الحكم العثماني لا يتخذ موقفا جامدا يحاول أن يبرره في كتاباته ،أو يختار له ما يناسبه من الوقائع والإشارات ،كما يفعل البعض لصياغة صورة مرغوبة قد لا

تعكس الواقع والحقيقة ، ولكنه يتعامل مع هذه المرحلة التاريخية بموضوعية متوازنة كما يؤكد على أهمية وضرورة اتساق الحكم عنها بالسياق التاريخي والظرف الحضاري التي كانت تمر بها الجزائر كجزء من الأمة العربية الإسلامية في تلك الفترة ،متوقفا خلال ذلك على إيجابيات المرحلة وسلبياتها بدون تشنج ولاتطرف.

هوامش :

-(1)سعد الله أبو القاسم: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ط 3 الشركة الوطنية للنش والتوزيع، الجزائر 1982

-(2)نفس المرجع ص5

-(3)سعد الله أبو القاسم: حاطب أوراق، ط 1 عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر 2010 ص ص 120/119

-(4)سعد الله أبو القاسم: حصاد الخريف، ط1 عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر2011 ص 120

-(5)سعد الله أبو القاسم :أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ج4 دار الغرب الإسلامي لبنان 1996 ص 188

-(6)سعد الله أبو القاسم :أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ج 1 دار البصائر ،الجزائر 2007 ص 63

-(7)سعد الله أبو القاسم :أبحاث وأراء ج 4 ص 190

-(8)سعد الله أبو القاسم: حاطب أوراق، ص 285

-(9)سعد الله أبو القاسم :أبحاث وأراء ج 1 ص 62

-(10)نفس المرجع ص 62

-(11)سعد الله أبو القاسم :تاريخ الجزائر الثقافي ج 2 ،ط 1 دار الغرب الإسلامي ،لبنان 1998 ص 190

-(12) نفس المرجع ص 203

-(13)سعد الله أبو القاسم: حبر على ورق، عالم المعرفة، الجزائر 2011 ص 99

-(14)سعد الله أبو القاسم : أبحاث وأراء ج1 ص 178

-(15)سعد الله أبو القاسم : الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، ج 1، ط1 دار الغرب الإسلامي لبنان 1992 ص 102